مقدمة المرزوقي

لشرح حماسة أبي تمام

شرح هذه المقدمة وضبطها

— ٧ —

(أو لا يكون بين أجزاء البيت التئام) .

تقدم الكلام على هذا عند الكلام على باب التحام أجزاء النظم وعند الكلام على عيار التحام أجزاء النظم .

(أو تكون القافية قلقة في مقرها أو مَعيبة في نفسها) .

تقدم الكلام على هذا عند الكلام على باب شدة اقتضاء اللفظ والمعنى للقافية من الأبواب السبعة التي هي عمود الشعر وعند الكلام على عيار شدة اقتضاء اللفظ والمعنى للقافيـة .

(أو يكون في القَسْم أو التقابل أو في التفسير فساد) .

أما فساد التقسيم فهو ضد صحة التقسيم وهو يكون على وجهين أحدهما أن يأتي الشاعر بتقسيم وليس هو بتقسيم كقول هذيل الأشجعي :

فما برحتْ تومي إليَّ بطرفها ... وتومض أحياناً اذا خصمُها غفل

فان تومي وتومض متساويان . وقريب منه قول لبيد :

كدخان مشعلة يشب ضرامها

ثم قال بعده فيها : كدُخان نار ساطع أسنامها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وثانيها ان يترك شيئاً من التقسيم كقول جرير :

كانت حنيفة أثلاثاً فثُلثُهُمُ من العبيد وثُلثٌ من مواليها

وسكت عن الثلث الثالث .

وأما فساد التقابل فهو فساد التضاد المقصود كقول ابي عدي :

رُحماءُ لذي الصلاح وضرّابو ن قِدْماً لهامة الصنديد

فقابل ذا الصلاح بالصنديد وقد يكون الصنديد صالحاً فيضربون هامته وقد يكون غير الصنديد شريراً فلا يضربون هامته . وأما فساد التفسير فهو فساد البيان بأن لا يلاقي البيان لما أُجمل سابقاً كقول بعضهم مادحاً :

فيأيها الحيران في ظُلَم الدجى ومن خاف أن يلقاه بغي من العدى

تعالَ اليه تلق من نور وجهه ضياء ومن كفيه بحراً من الندى

فتبيين ما يترقبه في ظلمة الدجى بحصول ضياء وجه الممدوح تفسير صحيح ولكن تبيين ما يترقبه خائف البغي بحصول الكرم تبيين فاسد . ومن فساد التفسير سخافته كقول عز الدين الموصلي في بديعيته .

ذكر الإمام وابنيه يفسره عليٌّ والحسنان أكرم بذكرهم

على ما في البيت من ضرورات ركيكة ثلاث .

(أو في المعنى تناقض) .

بحيث يقتضي بعض المعاني نقيض البعض الآخر في الغرض الواحد بلا تأويل ومن المعلوم مراعاة شروط التناقض في هذا وهي ما يعبر عنها بالوحدات الثمان في علم المنطق والا فان من التناقض ما هو معدود من لطائف الأساليب كقوله تعالى : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . ومنه ما يسمى بالطباق وهو الجمع بين معنيين متضادين ولو في الجملة .

ومثال ما وقع فيه التناقض وعيب على قائله قول زهير :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قف بالديار التي لم يعفها القدم بلى وغيرها الأرواحُ والديم

إذ جمع بين قوله لم يعفها وبين نقض النفي بحرف بلى وقد يغتفر ذلك لضرب من التمليح كقول بعض الأدباء :

أسْكرُ بالأمس إن عزمت على الشر ب غداً إن ذا من العجب

وليس ذلك بظريف لما فيه من الغلو وكذا قول ابن الفارض :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

وقد عابوا على عبد الرحمن بن عبيد الله القس قوله :

فاني اذا ما الموت حل بنفسها يزال بنفسي قبل ذاك فأقبر

لأن شرط إذا يقتضي المستقبل أي إذا هي ماتت يموت هو قبل ذلك .

(أو خروج الى ما ليس في العادة أو الطبع)

سماه خروجاً لأنه مخالفة لصحة الكلام فكأن صاحبه خرج من حظيرة معاني الشعر الى الهوس وهو يرجع الى الخطأ في المعاني . مثال الخروج الى ما ليس في العادة قول أبي الطيب :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

إذ ليس من عادة المحبين الرغبة في نسيان الأحباب إلا أن يكون الذي أراد منه ذلك غير نفسه فتأمله .

ومثال الخروج الى ما ليس في الطبع قول المرار :

وخال على خديك يبدو كأنه صنا البرق في دعجاء باد دجونها

فجعل الخال مفرطاً في البياض وطبيعة الخال السواد وإلا فقد انقلب بهقاً .

(أو يكون الوصف غير لائق بالموصوف) .

من أغلاط الشعراء في الجاهلية في الوصف قول المسيب بن علس :

وقد أتلافى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الناجي الجمل الفحل والصيعرية سمة يسم بها أهل اليمن النوق الكرائم فلا يوسم بها الجمل وأنشد هذا البيت بمحضر طرفة بن العبد وهو يومئذ صبي فقال طرفة : « استنوق الجمل » وضحك منه فأرسلها مثلاً . وقد ورد في كتب الأدب كثير من هذا كما في الموازنة الآمدي ولذا قال المؤلف فيما مضى « وعيار الإصابة في الوصف الذكاء وحسن التمييز » .

وقد يجيء الخطأ من حَصَر في التعبير كما وقع لعبد الله بن السمط في مدح الخليفة المأمون العباسي قوله :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً بالدين والناسُ بالدنيا مشاغيل

قالوا لما سمعه المأمون نظر اليه نظرة كاد أن يصطلمه عليها فلما حدّث عبد الله بذلك عمارةَ بن عقيل بن بلال بن جرير قال عمارة : « لقد أحسن إذ لم يؤدبك وإذا لم يشتغل هو بالدنيا فمن يشتغل بها هلا قلت كما قال جدي جرير في عمر ابن عبد العزيز :

فلا هو في الدنيا مضيع لدينه ولا عَرض الدنيا عن الدين شاغله

وفي رواية أنه قال له : ما زدت على أن جعلت أمير المؤمنين عجوزاً في محرابها .

(أو يكون في البيت حشو لا طائل فيه) .

الحشو بكسر الحاء هو الكلام الذي ليس فيه فائدة في الغرض بمعنى الحشو لأنه لا جدوى له إلا الزيادة في الكلام كقول مصقلة بن هبيرة :

أَلِكْني إلى أهل العراق رسالة وخُص بها حيث بكر بن وائل

فقوله حيث دعاه لا جدوى له في هذا المقام . ومنه قول أبي فراس :

ولكنني والحمد لله حازم أعز إذا ذلت لمن رقاب

فحمدُ الله هنا حشو إذ لا جدوى في الغرض . ومن قبيحه [1] قول بعضهم :

(١) أنشده قدامة في كتاب نقد النثر ص ٧٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أمَّ سَلاَّم أتيـبي عاشقاً يعلم الله يقيناً ربه
أنكم في عينه من عيشه فاعلميـه يا سليمى حسبه

فقوله يقيناً ربه حشوان وكذلك في عينه وكذلك فاعلميه يا سليمى .

(الى غير ذلك مما يحصِّله لك تأمُّلك جملَ المحاسن وتفصيلَها وتتبُّعك ما يضادها وينافيها وهذا هين قريب) .

أي ان المحاسن وأضدادها لا تنحصر فيما ذكره فقد تذكر بعض المحاسن ولا تذكر أضدادها وقد تذكر بعض العيوب ولا تذكر محاسن الخلو عنها والتأمل في الجميع يحصل للمتأمل انتباهاً الى إدراك ما عسى أن يغفلوا عنه .

(وإنما قلت هذا لأن ما يختاره الناقد الحاذق قد يتفق فيه ما لو سئل عن سبب اختياره إياه وعن الدلالة عليه لم يمكنه في الجواب إلا أن يقول : هكذا قضية طبعي أو ارجعْ الى غيري ممن له في[1] الدربة والعلم بمثله فانه يحكم بمثل حكمي وليس كذلك ما يسترذله النقد أو ينفيه الاختيار لأنه لا شيء من ذلك إلا ويمكن التنبيه على الخلل فيه وإقامة البرهان على رداءته فاعلمه) .

اسم الاشارة راجع الى ما تقدم من قوله « واعلم انه قد يعرف الجيد من يجهل الرديء الى قوله : وهذا هين قريب » يعني أنه إنما اهتم ببيان المقابح إجمالاً ثم تفصيلاً لتكون نموذجاً من علل النقد وأسباب السقوط بحيث يتمكن مزاولها والمتأمل فيها وفي ما يماثلها أن يبين وجه رداءة ما يحكم برداءته من الشعر لأن بيان أسباب الرداءة أيسر من بيان أسباب الجودة وقد تقدم قول الآمدي في الموازنة « وأبينُ الرديء وأرذله » .

ومراد المؤلف بقوله « لأنه لا شيء إلا ويمكن التنبيه على الخلل فيه وإقامة البرهان على رداءته فاعلمه » إظهار الفرق بين حالة الحكم بالإجادة وحالة الحكم

(١) الصواب إسقاط (في) كما في النسخة التونسية .

شبكة الألوكة
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بالرداءة فان الأولى قد يكون الرجوع فيها الى الطبع والذوق وان الثانية لا يعسر معها الاحتجاج بعلة الرداءة ولعله يشير بقوله « فاعلمه » الى الرد على الآمدي إذ سوّى بين الحالتين في الموازنة فقال « وأذكر من علل الجميع ما ينتهي اليه التخليص وتحيط به العناية ويبقى ما لم يمكن إخراجه الى البيان ولا إظهاره بالاحتجاج وهي علة ما لا يعرف إلا بالدربة ودائم التجربة وطول الملابسة وبهذا يفضل أهل الحذاقة بكل علم وصناعة من سواهم ممن نقصت قريحته وقلت دربته اه » .

(وأما تمنيك معرفة السبب في تأخر الشعراء عن رتبة الكتاب والبلغاء والعذر في قلة المترسلين وكثرة المفلقين والعلة في نباهة أولئك وخمول هؤلاء ولماذا كان أكثر المفلقين لا يبرعون في إنشاء الكتب وأكثر المترسلين لا يفلقون في قرض الشعر فاني أقول في كل ذلك [1] بما يحضر والله ولي توفيقي وهو حسبي وعليه توكلي) .

جمع المؤلف هذه الأسئلة جمعاً واحداً لأنه أراد الجواب عنها برمتها إذ كان بيان أسبابها آخذاً بعضه بحجز بعض كما سيأتي .

(اعلم ان تأخر الشعراء عن رتبة البلغاء موجبة تأخر المنظوم عن رتبة المنثور عند العرب لأمرين : أحدهما أن ملوكهم قبل الاسلام وبعده كانوا يتبجحون بالخطابة والافتنان فيها ويعدونها أكمل أسباب الرئاسة وأفضل آلات الزعامة فاذا وقف أحدهم بين السماطين لحصول تنافر أو تضاغن أو تظالم أو تشاجر فأحسن الاقتضاب عند البداهة وأنجع في الإسهاب وقت الإطالة ، أو اعتلى في ذروة منبر فتصرف في ضروب من تخشين القول وتليينه داعياً الى طاعة أو مستصلحاً لرعية أو غير ذلك مما تدعو الحاجة اليه كان ذلك أبلغ عندهم من إنفاق مال عظيم وتجهيز جيش كبير) .

ابتدأ المبحث بالتفضيل بين الكلام النثر والنظم وبنى تأخر الشعراء عن رتبة

(١) كذا في نشرة الدكتور شكري فيصل غير مثبت اختلاف النسخ . والذي في نسخة الاستانة ونسختي تونس « فاني أقول في كل فصل من ذلك » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الخطباء والكتاب على أساس تأخر المنظوم عن رتبة المنثور فأثار مبحثاً قديماً خاض فيه الأدباء وقد احتفل به ابن الأثير في كتابه الجامع الكبير فقال :

« اعلم أن الأقوال متعارضة في تفضيل كل واحد من هذين القسمين على الآخر إلا ان المذهب الفحل والقول القوي هو ان الكلام المنثور أفضل من الكلام المنظوم الخ » .

واعلم أن مناط التفاضل وموضوعه إنما هو النثر الخاص الذي يقصد منه تأثر السامع وإقناعه بغرض، وذلك هو النثر الذي يصاغ في قالب البلاغة والفصاحة كالخطب والرسائل والأمثال والقصص التي يقصد حفظها والتأدب بها والاحاجي والنكت المستظرفة فيقصد واضعوها التأنق فيها لتكون أبقى في ذهن السامع . فليس من موضوع التفاضل ما يجري بين الناس من المخاطبات في الشؤون المعتادة والمحادثات العادية ولا نحو كتابة ديوان الجند وكتابة الأموال . والمؤلف بنى تفضيل النثر على ما حف بصناعته من العوارض العرفية والدينية وذكر لتفضيل النثر على الشعر سببين . وابن الأثير ذكر أربعة أسباب وبعضها يتداخل مع ما ذكره المؤلف وقول المؤلف « عن رتبة البلغاء » أراد بالبلغاء غير الشعراء لأن الشعراء وان كانوا من أهل البلاغة إلا انهم لما كان لصناعة الشعر اسم خاص من بين الكلام البليغ شاع اطلاق وصف الشعراء عليهم وبقي وصف البلغاء مطلقاً على من عداهم من الخطباء والكتاب وهو إطلاق قديم مشهور ومنه قول أبي العلاء المعري :

لا تطلبنّ بدون حظ رتبة قلم البليغ بدون حظ مغزل

يعني بالبليغ الكاتب . وابتدأ المؤلف بحالة العصر الجاهلي فقصر كلامه على الخطباء إذ لم تكن في الجاهلية رسائل واعتبر المؤلف من عصر الجاهلية العصر الذي عُني الأدباء بتدوين آثاره دون ما قبل ذلك ، فقد زعم ابن رشيق في العمدة في باب التكسب بالشعر أن الشاعر كان في مبتدأ الأمر أرفع منزلة من الخطيب لحاجتهم الى الشعر في تخليد المآثر وشدة المعارضة وحماية العشيرة وتهيبهم عند شاعر غيرهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من القبائل فلا يقدم عليهم خوفاً من شاعرهم على نفسه وقبيلته فلما تكسبوا به وجعلوه طعمة وتولوا به الأعراض وتناولوها صارت الخطابة فوقه اهـ .

(وكانوا يأنفون من الاشتهار بقرض الشعر ويعده ملوكهم دناءة وقد كان لامرئ القيس في الجاهلية مع أبيه حُجْر بن عمرو حين تعاطى قول الشعر فنهاه عنه وقتاً بعد وقت وحالاً بعد حال ، ما أخرجه الى أن أمر بقتله وقصته مشهورة فهذا واحد) .

عد المؤلف أنفة سادة العرب في الجاهلية من الاشتهار بقرض الشعر تكملة للأمر الأول من أسباب تأخر الشعراء عن رتبة الكتاب وكان الأولى للمؤلف أن يجعله من جملة الأمر الثاني لأن الأنفة من قرض الشعر عندهم أوجبها اعتياد الشعراء التلبس بالأحوال التي هي من شأن أهل البطالة والتي لا تليق بالسؤدد في عرف زمانهم ومن ذلك ماسيذكره المؤلف عند تعرضه لأحوال الشعراء في مقابلة أحوال الكتاب إذ لا فرق في تلك الأحوال بين شعراء الجاهلية وشعراء الإسلام وما قصة امرئ القيس مع أبيه إلا من ذلك القبيل فكان الوجه تأخير هذا ليستقيم قول المؤلف فهذا واحد . وأشار الى قضية امرئ القيس مع أبيه حجر ملك بني أسد [1] وحاصلها أن حجراً سمع ابنه امرأ القيس يترنم في مجلس شرابه بقوله :

اسقيا حُجْراً على عِلاّته   من كميت لونُها لون العلق

فهم أبوه بقتله ثم نهاه فلما لم ينته اطرده من وجهه فكان بعيداً عنه الى أن قتل أبوه . والقصة مشهورة في كتب الأدب .

(والثاني انهم اتخذوا الشعر مكسبة وتجارة وتوصلوا به الى السُوَق كما توصلوا به الى العلية وتعرضوا لأعراض الناس فوصفوا اللئيم عند الطمع فيه بصفة الكريم والكريم عند تأخر صلته بصفة اللئيم حتى قيل : الشعر أدنى مروءة السري وأسرى مروءة الدني . فهذا الباب أمره ظاهر . واذا كان شرف الصانع

(١) انظر صبح الأعشى صفحة ٦٠ جزء ١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بمقدار شرف صناعته وكان النظم متأخراً عن رتبة النثر وجب أن يكون الشاعر أيضاً متخلفاً عن غاية البليغ) .

يعني أن الشعراء في الجاهلية اتخذوا الشعر مكسبة وتعرضوا به للعطاء مثل الأعشى والنابغة ففض منهم وبعضهم تعرض به الى أعراض الناس فسخطه الناس مثل الحطيئة ، وسكت المؤلف عن الذين اتخذوه للغزل واللهو فشغلهم عن عظائم الأمور . والحاصل ان في نحلة الشعر ما كان مجلبة للغض من أصحابه بالرغم على ما يعترف لهم به الناس من حسن البيان ، فقول من قال الشعر أدنى مروءة السري وأسرى مروءة الدني قول صادر عمن لحظ من الشعر بعض عوارضه وإلا فقد كانوا يعدون الشاعر ينافح عن القبيلة ويرفع من ذكرها فقيل كانوا يولمون إذا نبغ فيهم شاعر ، وقد قال النبي ﷺ : « إن من الشعر لحكمة » وقد تصدى عبد القاهر في أول دلائل الإعجاز لإبطال شبه من ساء اعتقادهم في الشعر فانظره . قال الجاحظ في البيان [1] قال عمر بن العلاء كان الشاعر في الجاهلية يقدّم على الخطيب بفرط حاجتهم الى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم وبهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوقة وتسرعوا الى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر ولذا قال الأوّل « الشعر أدنى مروءة السري وأسرى مروءة الدني ولقد وضع الشعر من قدر النابغة الذبياني ولو كان في الدهر الأول ما زاده ذلك إلا رفعة اهـ » .

وقولهم أدنى مروءة السري هو من الدناءة بمعنى الحطة أي هو أحط مروءة السري فالمروءة اجتماع الصفات التي تعتبر في الرجال وقد اشتقت من لفظ المرء كما اشتقت الرُّجْلة من لفظ الرجل فالشعر من المزايا التي يمتاز بها صاحبها إذ

(١) ج ١ صفحة ١٧٠ طبع التجارية سنة ٤٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا يحصل لكل أحد فجعلوه أقل كمالات الإنسان الشريف وجعلوه أشرف كمالات الدني وحسبك بهذا ثناء عليه، ولكن غرض المؤلف التنبيه الى أعراض أوجبت تنقص الشعر وان النثر سالم من تلك الأعراض وانه وإن شغل أصحابه عن عظائم الأمور لم يخل من إفادتهم قبولاً في قومهم ونفعاً يجره اليهم، وقد قال بعض شعراء بكر بن وائل :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسئوم

ووقع في كلامه لفظ السُّوَق وهو بضم السين وفتح الواو بوزن صُرد اسم جمع سوقة والسوقة اسم للجماعة المنسوبة الى السوق وهم العامة من الناس . والعِلية بكسر العين وسكون اللام الجماعة المعتلون أهل الرفعة والخصوصية .

(ومما يدل على أن النثر أشرف من النظم أن الإعجاز من الله تعالى حده والتحدي من الرسول عليه السلام وقعا فيه دون النظم يكشف ذلك أن معجزات الأنبياء عليهم السلام في أوقاتهم كانت من جنس ما كانت أممهم يولعون به في حينهم ويغلب على طبائعهم وبأشرف ذلك الجنس على ذلك كانت معجزة موسى عليه السلام لأنها ظهرت عليه وزمنه زمن السحر والسحرة فصارت من ذلك الجنس وبأشرفه .

وكذلك كان حال عيسى عليه السلام لأن زمنه كان زمن الطب فكانت معجزته وهي إحياء الموتى من ذلك الجنس وبأشرفه .

فلما كان زمن النبي ﷺ زمنَ الفصاحة والبيان جعل الله معجزته من جنس ما كانوا يولعون به وبأشرفه فتحداهم بالقرآن كلاماً منثوراً لا شعراً منظوماً وقد قال الله عز وجل في تنزيه النبي ﷺ : «وما علمناه الشعر وما ينبغي له» وقال أيضاً : «والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون» .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولما كان الأمر على ما بيناه وجب أن يكون النثر أرفع شأناً وأعلى سمكا وبناء من النظم وأن يكون مزاوله كذلك ، اعتباراً بسائر الصناعات وبمزاوليها) .

ساق المؤلف هذا الكلام كتكملة للسبب الثاني في تفضيل النثر على الشعر ببيان أن ذلك فضل اكتسبه في الجاهلية . وعززه له الإسلام ولهذا لم يجعل هذا دليلاً ثالثاً وقد عده ابن الأثير في الجامع الكبير سبباً مستقلاً ، وفي نسخة الاستانة بعد قوله أشرف من النظم « وان النظم أقصر درجة من النثر » .

(وأما السبب في قلة المترسلين وكثرة المفلقين وعزّ من جمع بين النوعين مبرزاً فيهما فهو أن مبنى الترسل على أن يكون واضح المنهج سهل المعنى ممتد الباع واسع النطاق تدل لوائحه على حقائقه ، وظواهره على بواطنه إذ كان مورده على أسماع مفترقة من خاصي وعامي وأفهام مختلفة من ذكي وغبي فمتى كان متسهلاً متساوقاً ومتسلسلاً متجاوباً تساوت الآذان في تلقيه والأفهام في درايته والألسن في روايته فيسمح شارده اذا استدعي ويتمحل وافده اذا استدني وإنْ تطاوَل أنفاسُ فصوله وتباعَد أطرافُ حزونه وسهوله .

ومبنى الشعر على العكس من جميع ذلك، لأنه بني على أوزان مقدرة وحدود مقسمة وقوافٍ يساق ما قبلها اليها مهيأة ، وعلى أن يقوم كل بيت بنفسه غير مفتقر الى غيره إلا أن يكون مضمناً بأخيه وهو عيب فيه .

فلما كان مداه لا يمتد بأكثر من مقدار عروضه وضربه وكلاهما قليل وكان الشاعر يعمل قصيدته بيتاً بيتاً وكل بيت يتقاضاه بالاتحاد وجب أن يكون الفضل في أكثر الأحوال في المعنى وان يبالغ الشاعر في تلطيفه والأخذ من حواشيه حتى يتسع له اللفظ فيؤديه على غموضه وخفائه حداً يصير المدرك له والمشرف عليه كالفائز بذخيرة اغتنمها والظافر بدفينة استخرجها وفي مثل ذلك يحسن اغماء الأثر ، وتباطؤ المطلوب على المنتظر ، فكل ما يحمد في الترسل ويختار يذم في الشعر ويرفض .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فلما اختلف المبنيان كما بينا وكان المتولي لكل واحد منهما يختار أبعد الغايات لنفسه فيه اختلفت فيهما الاصابتان لتباين طرفيهما وتفاوت قطريهما فبعد على القرائح الجمع بينهما) .

انتقل المؤلف الى بيان فضل النثر البليغ على الشعر البليغ في عصور دول الإسلام وجمع هنا الجواب عن مسألتين : مسألة السبب في قلة المترسلين من الكتاب وكثرة المفلقين من الشعراء . ومسألة السبب في عزة من يجمع بين الترسل والشعر .

وابتدأ بجواب المسألة الثانية في سبب عزة الجمع بين الترسل والشعر بقوله : « فهو ان مبنى الترسل الى قوله أولى وأخص » وحاصل السبب ان مقتضى الصناعتين مختلف فكان ذلك الاختلاف سبباً في ندرة العقول التي تجيد كلتا الصناعتين لأن العناية بأحد الأسلوبين واجادته تباعد الفكر عن الاهتمام بالآخر والاشتغال به . والانصراف والتوجه الى احدى الصناعتين حتى تستولي على الذهن هو أمر يتبع اختلاف توجه النفوس وميلها وقوله : « فيسمح شارده اذا استدعي . ويتعجل وافده اذا استدني » بفتح حرف المضارعة في يسمح ويتعجل مبنيين الى الفاعل وأراد بالشارد المعنى العزيز الممتنع وبالوافد المعنى السهل استعار الشارد للنادر لقلة حضوره واستعار الوافد للسهل لأنه كالذي يأتي بدون استدعاء واستعار لمحاولة اختراع المعنى النادر وللتمكن من تقويمه في الذهن فعلي الاستدعاء والسماح . واستعار لإبراز المعنى السهل بعد خطوره في الذهن فعلى التعجل والاستدناء لأن الوافد يُستدنى للإكرام والقرى .

« وقوله أنفاس فصوله » كذا ثبت في نسخة الاستانة والنسختين التونسيتين . ووقع في نشرة الدكتور شكري « أنفاس وصوله » بواو عوض الفاء ولا يظهر له كبير معنى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقول المؤلف « إلا أن يكون مضمناً بأخيه وهو عيب فيه » أشار الى ما يسمى عندهم بالتضمين وهو أن يتوقف فهم معنى البيت على معرفة البيت الذي بعده وهو عيب في الشعر العربي ومع ذلك وقع في شعر فحول الشعراء ، ووقع للنابغة في عدة قصائد كقوله :

فهم درعي التي استلأمت فيها وهم أصحاب يوم عكاظ إني
شهدتُ لهم مواطن صادقات شهدن لهم بصدق الود مني

وقوله : « وكل بيت يتقاضاه بالاتحاد » وقع في نسخة الاستانة مخالفاً بالترتيب وبالاعجام فكتب « يتقاضاه كل بيت بالاتخاذ » باخاء والذال المعجمتين والمعنى على معظم النسخ بالمهملتين ان كل بيت يطالب الشاعر بأن يجعله متحداً مع الأبيات أقرانه ففي ذلك التقاضي زيادة كلفة للشاعر وعمل ليناسب بين البيت وأخيه كما قال رؤبة : « قد قلتَ لو كان له قران » فتأمل .

وأما الاتخاذ بالمعجمتين فلا يظهر له معنى لأن الشاعر إذا نظم البيت فقد اتخذه فهذا تحصيل حاصل . وقوله « وفي مثل ذلك يحسن انمحاء الأثر . وتباطؤ المطلوب على المنتظِر » انمحاء الأثر كناية عن كثرة التردد على الطريق حتى لا تبين فيه آثار أقدام معينة وقد جعله تمثيلاً لحالة وفرة المحاولين لانتزاع المعاني وتهذيبها وإفراغها في قوالب النظم بحالة كثرة السائرين في جادة الطريق حتى تصير الطريق صلبة لا تظهر فيها آثار أقدام السائرين ولا سنابك الركاب كما يقال بيض الطرائق . والمعنى ان في هذا العمل ومثله يحسن الدأب على الطلب ومحاولة الظفَر بالغاية .

وقوله « وتباطؤ المطلوب على المنتظِر » أي هذا تباطؤ حسن غير مذموم وانتظار لذيذ لأجل ما يجده المنتظر في أثناء انتظاره من توسم نوال غُنم نفيس وظهور بشائر اقترابه كما قال أبو الطيب :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن الخير بطء سيبك عني أسرع السحب في المسير الجهام

(يكشف ذلك أن الرجز وان خالف القصيد مخالفة قريبة ترجع الى تقطيع شأو اللفظ فيه وتزاحم السجع عليه ، قلّ عدد الجامعين بينهما لتقاصر الطباع عن الإحاطة بهما ، فاذا كان الرجز والقصيد مع أنهما من واد واحد أفضت الحال بمتعاطيهما الى ما قلت على خلاف يسير بينهما ، فالنثر والنظم وهما في طرفين ضدين وعلى حالتين متباينتين أولى وأخص) .

كان العرب قد خصوا الرجز بأغراض غير مهمة وهي الحداء والمتح على المياه وترقيص الأمهات أطفالهن . وكانوا ينظمونه على حالةٍ عَجلة وكيفما اتفق فلذلك لم يكن يعبأ به الشعراء . وربما ارتجز البطل عند الخروج الى صف المقاتلة يُرهب الناس بما يذكره من بأسه الى أن ظهر منهم الرجاز المجيدون مثل العجاج وأبي النجم وكانوا كلهم من أهل البداوة فبقي الرجز شعار الأديب البدوي ولم يبرّز فيه أهل الحضر وقد عد من مقدرة بشار بن برد انه ارتجز بأراجيز فاق فيها مشاهير الرجاز مثل أرجوزته الطويلة :

يا طلل الحي بذات الصمد بالله حدّث كيف عدت بعدي

وقصته فيها مع عقبة بن رؤبة مذكورة في ترجمة بشار .

(وأما السبب في قلة البلغاء وكثرة الشعراء ونباهة أولئك وخمول هؤلاء) .

أراد بالبلغاء الكتاب البلغاء كما يبينه قوله : « منها أن المترسل محتاج الخ » ويبينه أيضاً انه موضوع البحث لقوله في حكاية السؤال « معرفة السبب في تأخر الشعراء عن رتبة الكتاب والعذر في قلة المترسلين وكثرة المفلقين » وقد تقدم وجه هذه العبارة عند شرح قوله « اعلم أن تأخر الشعراء عن رتبة البلغاء الخ » وكأنّ اللام في البلغاء للعهد لأنه لما ذكر في صدر المقدمة رغبة السائل الكشف عما تخير فيه قال هنالك « وقلتُ أيضاً أتمنى أن أعرف السبب في تأخر الشعراء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عن رتبة الكتاب البلغاء » وسبب ذلك كله أن أغلب المترسلين كانوا في عداد كتاب الدولة فصار الترسل مقارناً في الأذهان لصناعة الكتابة التي لها نباهة في الدولة ولذلك لم يتعرض المؤلف للخطباء في الاسلام اكتفاء بما ذكره من فضل الخطابة في العصر الجاهلي واعتداداً بأن الكتابة غطت على الخطابة وغمرتها بين أهل الدولة . والنباهةُ مصدر نبُه بضم الباء ويجوز فيها الفتح والكسر وهي الشرف وعلو القدر والخمول ضد النباهة ولم يصرحوا بحركة الحاء منه ولكن قياسه ضم الحاء لأن مصدر فعل المفتوح العين اللازم يكون على وزن فعُول بضم الفاء باطراد إلا في أفعال الامتناع وأفعال الاضطراب وأفعال الادواء .

(فهو ان المترسل محتاج الى مراعاة أمور كثيرة إن أهملها أو أهمل شيئاً منها رجعت النقيصة اليه وتوجهت اللائمة عليه) .

يُبين كلامَ المؤلف هنا كلامٌ صدر عن ابن الأثير في الفصل الثاني من مقدمة المثل السائر إذ قال : « وقد قيل ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم ، حتى قيل كل ذي علم يسوغ له ان ينسب نفسه اليه فيقول فلان النحوي وفلان الفقيه وفلان المتكلم ولا يسوغ له أن ينسب نفسه الى الكتابة وذلك لما يفتقر اليه من الخواص في كل فن .

وذكر ابن الأثير أن فن الكتابة يفتقر الى سبعة أنواع من الآلات . هي علوم العربية ، وعلم اللغة وأمثال العرب ، والاطلاع على تآليف من تقدمه من أرباب الصناعة المنظومة والمنثورة ، ومعرفة الأحكام السلطانية ، وحفظ القرآن ، وحفظ ما يحتاج اليه من الأخبار الواردة عن النبي ﷺ . وقال القلقشندي : « ان كاتب الانشاء في الحقيقة لا يستغني عن علم ولا يسعه الوقوف عند فن » وعلى هذا الاعتبار توسع القلقشندي فألف كتابه صبح الأعشى في صناعة الإنشاء في عشرين جزءاً . وقال : [1] « واعلم أن كاتب الإنشاء وإن كان

(١) صفحة ١٤٦ جزء ١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يحتاج الى التملق بجميع العلوم فليس احتياجه الى ذلك على حد واحد بل منها ما يحتاج اليه بطريق الذات وهي مواد الإنشاء التي يستمد منها كاللغة والنحو والبلاغة ومنها ما يحتاج اليه بطريق العَرَض كالطب والهندسة فإنه يحتاج الى الألفاظ الدائرة بين أهل كل علم والى معرفة المشهورين من أهله ومشاهير الكتب المصنفة فيه بل ربما احتاج الى معرفة مصطلح سفل الناس لكتابة أمور هزلية الخ » .

وأقول ان الكتّاب المشروطة فيهم هذه الشروط هم كتاب الرسائل السلطانية ومن كان في مرتبتهم وهم الذين منهم تختار الوزراء دون أصناف آخرين من الكتاب مثل كاتب القاضي وكاتب الخراج وكاتب الجند وكاتب الحساب وغيرهم وهم مراتب وشروطهم كذلك وهي منحصرة فيما به إجادة عملهم [1] .

(منها تبين مقادير من يَكتب عنه واليه حتى لا يرفع وضيعاً ولا يضع رفيعاً ـ ومنها وزن الألفاظ التي يستعملها في تصاريفه حتى تجيء لائقة بمن يُخاطب بها مفخِمة لحضرة سلطانه التي يصدر عنها ـ ومنها أن يعرف أحوال الزمان وعوارض الحدثان فيتصرف معها على مقاديرها في النقض والإبرام والبسط والانقباض ـ ومنها ان يعلم أوقات الإسهاب والتطويل والايجاز والتخفيف فقد يتفق ما يحتاج فيه الى الاكثار حتى يستغرق في الرسالة الواحدة أقدار القصائد الطويلة ؛ ويتفق أيضاً ما تغني فيه الاشارة وما يجري مجرى الوحي في الدلالة ـ ومنها ان يعرف من أحكام الشريعة ما يقف به على سواء السبيل فلا يشتط في الحكومة ولا يعدلَ فيما يخط عن المحجة فهو انما يترسل في عهود الولاة والقضاة وتأكيد البيعة والائتمان وعمارة البلدان وإصلاح فساد وتحريض على جهاد وسد ثغور ورتق فتوق واحتجاج على فئة أو مجادلة لِملة أو دعاء الى ألفة أو نهي عن فرقة أو تهنئة بعطية أو تعزية برزية أو ما شاكل ذلك من جلائل الخطوب وعظائم الشؤون التي يحتاج فيها الى أدوات كثيرة ومعرفة مفتنة) .

(١) انظر صبح الأعشى صفحة ١٤٣ جزء ١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أشار الى أشد ما يحتاج اليه كاتب الإنشاء وهو أهم ما ذكره صاحب صبح الأعشى آنفاً .

(فلما كان الأمر على هذا صار وجود المضطلعين بجودة النثر أعز وعددهم أنزر وقد وسمتهم الكتابة بشرفها وبوأتهم منزلة رئاستها فأخطارهم عالية بحسب علو صناعتهم ومعاقد رئاستهم وشدة الفاقة الى كفايتهم) .

جعل السبب في قلة الكتاب هو السبب أيضاً في رفعة شأنهم وقد يكون للسبب الواحد مسببان فأكثر . وحاجة السلاطين والأمراء والسادة الى الكتاب معلومة وفي تضاعيف شواهد التاريخ منها كثير . وقصة غناء عبد الله بن المقفع الكاتب عن مخدومه علي بن عبد الله بن عباس في صده كيد السفاح عنه بما كتبه من صيغة الأمان الذي رضي السفاح ببذله لعمه علي بن عبد الله بن عباس، مذكورة في ترجمة ابن المقفع ويقال هي كانت سبب نكبة ابن المقفع . وذكر الحريري في المقامة ٢٢ بعض مزايا الكتاب أهل الإنشاء وبعض وجوه الحاجة اليهم فقال «والمنشئ جهينة الأخبار . وحقيبة الأسرار . ونجيّ العظماء . وكبير الندماء . وقلم لسان الدولة . وفارس الجولة . ولقمان الحكمة . وترجمان الهمة . وهو البشير النذير . والشفيع السفير . به تستخلص الصياصي . وتملك النواصي . ويقتاد العاصي . ويستدنى القاصي . وصاحبه بريء من التبعات . آمن كيد السعاة» .

وفي صبح الأعشى من كلام ابن جعفر الفضل بن أحمد : «للكتاب أفرت الملوك بالفاقة والحاجة . واليهم ألقوا الأعنه والأزمة . وبهم اعتصموا في النازلة والنكبة . وعليهم اتكلوا في الأهل والولد . والذخائر والعقد . وولاية العهد . وتدبير الملك وقرع الأعداء . وتوفير الفيء . وحياطة الحريم . وحفظ الأسرار . وترتيب المراتب . ونظم الحروب» .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(والشعراء إنما أغراضهم التي يسددون نحوها ، وغاياتهم التي ينزعون اليها ، وصف الديار والآثار والحنين الى المعاهد والأوطان والتشبيبُ بالنساء والتلطيف في الاجتداء والتفنن في المديح والهجاء والمبالغة في التشبيه والأوصاف ، فاذا كان كذلك لم يتدانوا في المضمار ولا تقاربوا في الأقدار . وإذ قد أتينا بما أردنا ووفينا بما وعدنا فانا نشتغل بما هو القصد من شرح الاختيار والله الموفق للصواب والصلاة والسلام على رسوله وآله الأخيار) .

أشار الى أن أغراض الشعراء وإن كانت رائقة للنفوس ومرغوبة عند أهل الذوق السليم فان للكتّاب المرتبةَ المهيبة ، والآثارَ العجيبة .

(تونس) محمد الطاهر ابن عاشور

شيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net